

حذاق يحسنون آداب الحرب ويستفيدون من منافع السلم . هم الذين وضعوا حروف الهجاء . فاستخدموها لأعمال شتى واخترعوا فنونا عديدة وهم ايضا الذين سبقوا الى خوض البحار وتقدموا الشعوب في الحروب البحرية .

جاء في كتاب حديث للعلامة فكتور بيرار دعاهُ « الفينيقيون والاولديسة » (V. Bérard: *Les Phéniciens et l'Odyssée*) : انَّ جغرافية منظومة اميروس الاولديسة مبنية غالبا على المعلومات التي استفادها ذلك الشاعر المفلت من الفينيقيين . ثم استشهد لتأييد قوله بالجغرافي سترابون حيث قال : انَّ الفينيقيين ارشدوه الى معرفة وصف البلدان (οἱ γὰρ Φοίνικες ἐδήλουν τοῦτο) . وكتاب المسيو بيرار مشحون بالتفاصيل والادلة المثبتة لسيطرة الفينيقيين على البحار (اطلب المشرق ٩ : ٢٣٤)

ولما اراد سنأحريب ملك اشور ان يجهز لدولته اسطولا بحريا في الخليج العجمي لم يجد من يقوم بعمله غير الفينيقيين . قال في احدي كتاباته : « قد اقمْتُ في نينوى رجالا من الحثيين (وكان الحثيون من سكان سورية) أسرهم قوسي فعثروا لي مراكب كبيرة على مشال بلادهم فجهزتها بالملاحين السوريين والصيدونيين الذين قبضتهم يدي »

وقد حفظ اهل فينيقية السيادة على البحار حتى في عهد اليونان بعد فتوحات الاسكندر الذي جرى على مشال سنأحريب في تجهيز المراكب . وقلما تجد في تواريخ اليونان كاتباً يذكر سفينة لا يكون ربانها سورياً او فينيقياً

٤

السوريون دعاة الدين

هذا ولاهل الشام فخر آخر غير المفاخر السابقة فانهم ليس فقط توسطوا بين الدول القديمة المتمدنة والامم التي اشتقت الشعوب المستحدثة لكنهم ايضا نالوا امتياز آخر فدعاهم الله لتربية العالم الادبية والدينية فصاروا متوسطين بين الله والانسان ومن هذا

القبيل كانوا هم السابقين لم يأخذوا الامر من سواهم . نعم لأن التمدن البابلي والمصري كان بلغ في الصنائع والفنون مبلغاً عظيماً والفينيقيون استفادوا من ذلك وافادوا غيرهم لكنّ الفراعنة وملوك اشور كانوا من حيث الآداب والاخلاق بعيدين عن الكمال لا يعرفون من العدل والرحمة غير اسمها فيستسلمون للجور ويعتبرون انفسهم بمثابة آلهة يتصرفون برعاياهم كيف شاؤوا لا يباليون بما ينتظرهم لدى الديان من المسئولية عن اعمالهم . وان كان من بعدهم قد غلب على الشعوب التالية روح الدماثة واضحي التمدن الجديد مبنياً على العدل والمحبة فالفضل في ذلك الى المستشرعين الصالحين والى الرسل القديسين والى الانبياء الابرار الذي نشأوا في سوربة فلسطين وبالاخص الى ذاك الذي كان اكبر من المستشرعين واشرف من الانبياء المسيح ابن الله فانّ لاهوت الخالق وصفاته العجيبة لم تظهر في مكان من الارض ظهورها في سوربة فلسطين فلاح نور التوحيد فيها ومنها امتدّ الى بقية الشعوب فادخلها في طور جديد من الترقى والفلاح . ولذلك ترى عيون الانسانية متجهة منذ النفي سنة الى تلك البلاد مهد الاديان الموحدة حيث جرت أحداث التوراة الخطيرة وتجلّى الحق سبحانه لعباده فغيّرت انواره هيئة المجتمع الانساني

فقد اصاب من دعا سوربة فلسطين ارضاً مقدسة . كيف لا وفيها حدثت اعجب العجائب وبها تنوط ذكرى اشرف الاعمال واعظم الرجال بحيث يصح القول عنها انه ليس فيها شبرٌ ألا وقد صلى فيها نبي . ولو اعتبرت اخبار الانجيل الطاهر وحدها وجدت اربعة اخماسها قد جرت في الجليل وليست بلاد الجليل الاقسماً من سوربة متصلاً بفنيقية الجنوبية وطالما دخل الجليل في حيزها وتبعها في حكمها ونظامها . ولو بحثت عن مواطن الرسل الحواريين لوقفت عليها في سواد عكا وصور وكان لهاتين المدينتين مراكز تجارية في كل ساحل فلسطين . وكما ان العهد القديم في سفر الملوك الرابع (١٧ : ١٩) قد اتسع في اعمال ايليا النبي في تخوم صور كذلك يروى العهد الجديد آثار ابن الله في سواحل فنيقية بين اهلها الكنعانيين . وزد على ذلك ان الكنائس المسيحية الاولى قد نشأت في اواسط سوربة وشالها وان اسم النصارى شاع أولاً في انطاكية وقد صارت تلك الكنائس كمثال هذا حذوه من اتى بعدها . وعليه يستحق السوريون هنا ايضاً وبنوع آخر ان يدعوا سيطرة الآداب ودعاة الدين فتقدّموا على اليونان والرومان

الذين مشوا على آثارهم في دعوة العالم الى المسيح (١) . قال مُنتَنَبِرَت الحطيب الشهير في كتابه عن نساك الغرب (Moines d'Occident, I, 142) « ان الدين كما عزة السلاح كما فخر الآداب كل ذلك قد جرى على سنة مقررة راهنة وناموس ثابت فانتقل من الشرق الى الغرب . بدا التمدن وبدت القوة من الشرق على مثال النور وكما ان النور لا يزال يزداد بها ، وحسناً على قدر ما يتقرب من الغرب كذلك التمدن والعزّة زادا في الغرب بعد ان ظهرا في الشرق »

قضى ما لسورية من النصيب العظيم في ترقى الشعوب فانها هي السابقة والفضل كما قيل للمتقدم فيجوز لكل رجل ان يعتبر سورية كوطنه الثاني لان منها نال حياته الادبية ان لم ينل حياته الزمنية . ولهذا السبب لم تزل اوربة توجه بالحاظها الى البلاد التي منها اخذت مصدر حياتها العقلية والادبية وكان قدماء النصارى اذا صلّوا جعلوا الشرق قبلتهم فيوجهون بابصارهم الى الاراضي المقدسة والى الجبلية وقبر المسيح . وكان ضوء السحر يذكّرهم بأسرار دينهم وكانوا يطلبون ان تدار رؤوسهم الى الشرق في قبورهم لترتاح عظامهم الهامدة بتوجيهها الى منبع ايمانهم . هذا فضلاً عن الوف الالوف الذين لم يرغبوا في حياتهم الا شيئاً واحداً زيارة تلك الاماكن المقدسة التي شرفها ابن الله بحياته وموته فيتجسّسون لذلك اعظم الاخطار ويقاسون اصناف الاتعاب مجلّ امانهم وقصوى بغيتهم . قال أحد هؤلاء الزوّار في القرن الخامس عشر ابرهارد اللحياني (Eberhard le Barbu) كنت بلاد فرقتبرغ : « ان ثلاثة اشياء لا يجوز الترسب فيها ولا الرد عنها وهي الزواج والحرب وزيارة الاراضي المقدسة فانها كلها ربّما ابتدأت ابتداء حسناً فتنتهي على غير المرغوب » وفي قوله هذا اشارة الى الصعوبات التي كان يلقاها زوّار ذلك الزمان . على ان هذه الانصاب والمخاطر لم تقوَ على ضبط جماهير الزوّار الذين لم يزالوا منذ عهد قسطنطين الكبير يتواردون بلا انقطاع الى الاراضي

(١) اطلب كتاب هرنك A. Harnack : Mission und Ausbreitung des Christen- tums (409-410) وقد اثبت فيه اسماء البلدان التي نشأت فيها كنيسة مسيحية منذ القرن الاول للتصراية

المقدسة كما تشهد على ذلك اخبار رحلهم المتعددة التي دونها في اسفار شاعت في كل
جهات المعمور وبين كل طبقات الناس

*

وقبل ختامنا لهذا الفصل الذي كتبناه في موقع سوروية وجعلناه كتوطئة لاجائنا
في جغرافية الشام ينبغي لنا ان نضيف اليه بعض ملحوظات عمومية
من خواص الشام كما سبق القول ان لها حدوداً ظاهرة وتحوماً مقررّة . وفي ذلك
فائدة كبيرة لأنّ تحوم البلاد بمثابة حدود الاملاك وحواجزها التي تصونها من كل تعدّي
ومخاصمة . وفي الواقع ترى جهات الشام مفروزة عمّا سواها فلا تستطيع ان تخلط بينها
وبين البلاد المجاورة لها كآسية الصغرى مثلاً لأنّ بين الشام والاناضول طوداً شاهقاً يفوق
بارتفاعه جبال الپيراناي الذي يفصل فرنسا عن اسبانية وهو اعظم مهابة منه . كذلك
من جهة الشمال الشرقي نهرٌ وهو الفرات معدّل عرضه ٥٠٠ متر يفصل الشام عن بلاد
ما بين النهرين . أمّا الفاصل بين الشام ومصر وانحاء العرب فبحرٌ بلا ماء اي البوادي
القفرة الواسعة التي يسهل دونها قطع البحار وقد بينّا قبلاً ان البحار صارت اليوم من
اسباب الوصال وهيئات ان يصدق ذلك في الصحاري والقفار

وخلاصة انكلام ان بلاد الشام مجموعٌ منفردٌ قائمٌ بذاته لا يمتزج بتخومه غيره ليست
كأنكثرة معتزلة عمّا سواها مفتوحة الثغور لمن يطلبها . لكنّ هذه العزلة لم تعرض
بلاد الشام للفتور والخبَل كما جرى لبلاد الصين وراء حائطها الكبير بل قاسمت البلاد
التمدنة في حركتها وناهيك بالحركة بركة وخصباً وترقياً . وقد اثبتنا في ما سبق ان
الشام رأت من تقلبات الدول وفتوحاتها ما قلّ لبلد آخر ان يجتبر مثله . فانّ الامم القديمة
تجاوزت تلك التخوم وخرقت تلك الحواجز وعدت الشام كطعمة تتنازعها مطامع
« ذباب مصر ونحل اشور » كما قال اشعيا النبي (١٨: ٧) . وكانت هذه الامم تعتبر
فتح الشام وفلسطين كاعظم فوز تفوز به لأنّها كانت تجدد في هذه البلاد معبراً اكيداً
لتصريف تجارة الهند في موالي بحر الشام وباباً واسعاً لفتح افريقية وآسية المتقدمة .
وهذا الحكم قد خطر منذ نحو ٥٠٠٠ سنة على بال سرغون احد ملوك بابل فأثبتته
في بعض مآثره

وقد سبق لنا القول في سبب انتقال الحركة التجارية العمومية في عهدنا . فعلة ذلك ان القطب الذي عليه كان مدار الحركة التجارية لم يعد في مكانه ماراً في وسط بلاد الشام بل تحول عن ممره فصار يمتد في طريقين آخرين اما في شرقي الشام واما في غربيها . وليس هذا الخلل الوحيد الذي تدلنا عليه القوانين الجغرافية فاننا نرى خلافاً آخر يضعف هذه البلاد تشير اليه الجغرافية ايضاً

*

تشبه سورية في هيئتها الطبيعية مرعباً كبيراً يقيس طوله ثمانى مرات عرضه لأن طوله من جبل طورس الى جبل سينا لا يقل عن ١١٠٠ كيلومتر بخلاف عرضه الذي لا يتجاوز معدله ١٥٠ كيلومتراً . وكل يعلم ان مثل هذا التباين في الاقضية يضر بالموازنة ويمنع الارتباط والوحدة بين جهات البلاد . لأن الجسم السياسي اذا امتدت اطرافه فبعدت عن مركز الحكم خف فعله فيها . ومن ثم ترى الانحاء تطلب التفرد فتضعف القوة العمومية . وهذا مما يظهر اليوم في بعض البلاد رغماً عن الروابط العظيمة التي تستعين بها الدول في عهدنا لضم اطرافها وتوحيد عناصرها كاحتكار القوة وتعميم التعليم والجندية الالزامية وغير ذلك مما تفردت به الدول الحالية . مثال ذلك ما تجده في ايطالية فان الحكومة الواحدة تحكم على بلاد مختلفة طبائع واغراضاً كبلاد بياصنتي في الشمال وبلاد صقلية في الجنوب وحتى الآن لم تقو الحكومة على مزج هذه العناصر المتباينة وتوحيدها

ويضاف الى هذا الخلل في تركيب سورية الجغرافية خلل آخر ليس باقل ضرراً منه بوحدة ادارتها زيد سلاسل جبالها التي تخترق البلاد فتمنع اختلاط طوائفها وتوحيد عناصرها . كما ترى في سويسرة وجهات الاناضول حيث ارتفعت ايضاً الجبال الشاهقة فاضرت بامتزاج اقسامها . والتاريخ يعلمنا ان الدول الكبرى كانت تجعل مراكزها في السهول . اما سهول سورية فتراها بعيدة عن مركز حركتها معتلة في طرفها الشمالي الشرقي وتلك الجهة اشبه بيادية مقفرة وهي منزوية معتلة فلا تستطيع ان تنشأ فيها مدينة عامرة تحيي الاطراف بنفوذها

وما هو اخطر من ذلك ان هذه الجبال السورية التي يبلغ معدل علوها ٢٠٠٠